

مقدمة

يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات الأدبية نشرت عبر الثلاثين عامًا الماضية. وهي دراسات متنوعة على مستوى الشكل والمضمون، بل والمنهج، وإن كان ينتظمها خيط واحد، فجميعها يتناول قضايا فكرية متنوعة، مثل الأدب والصراع العربي الإسرائيلي، والأدب والسياسة، والأدب والتحديث. كما أنها جميعًا تلتزم بعدم إطلاق أى تعميمات نقدية دون قراءة متمعنة فى النصوص، ودون تجريد النموذج الإدراكى الكامن فى كل جزئيات النص وتفصيله، ثم تحويله إلى نموذج تحليلى يُستخدم فى قراءة هذا النص فى كليته وتكامله. وقد استخدمت آليات عديدة لتحقيق هذا الهدف (التحليل الفلسفى - دراسة الخلفية التاريخية - التحليل الطبقي - التحليل البنيوي) ولكن من أهمها قراءة النص من خلال الصور المجازية التى ترد فيه.

وقد حاولت قدر استطاعتي أن أصنف هذه الدراسات على أساس الموضوع الأساسى المتواتر الكامن (بالإنجليزية: ثيم Theme) الذى هو قريب الصلة بمفهوم النموذج. ويتناول الفصلان الأول والثانى من هذا الكتاب («الأدب والصراع العربى الإسرائيلى» و«الأدب والسياسة») هذا الموضوع الخلقى، أى علاقة الأدب بحقل غير أدبى، وكيف يمكن الانتقال من حقل إلى آخر. وقد حاولت فى الدراسة الأولى «هل الصهيونية حركة رومانسية؟» أن أقدم وصفًا نظريًا للمنهج الذى تبنيته فى هذه الدراسة (وفى معظم - وربما كل - الدراسات الأخرى التى يضمها هذا الكتاب). ويعد هذا قمت بتطبيق هذا المنهج على حقلين مختلفين تمام الاختلاف، بل وقد يبدوان للوهلة الأولى وكأنهما يقفان على طرفى النقيض الواحد من الآخر (ويمكن للقارئ الذى يود الاستزادة بخصوص المنهج التفسيري والتحليلى الذى أستخدمة أن يعود لكتاب دراسات فى الشعر، الجزء المعنون «فى المنهج»).

ويتناول الفصل الثالث («الأدب والتحديث») كيفية استجابة بعض الأدباء فى الشرق والغرب لقضية تحديث المجتمع. وتدور دراسات الفصل الرابع («فى الوجدان الأمريكى») حول بعض الإشكاليات الفلسفية التى يواجهها الأدباء الأمريكيون. ويتناول الفصل الخامس والأخير («فى النقد الأدبى») بعض الأعمال والنظريات النقدية.

والدراسات التي يضمها هذا الكتاب (وكل دراساتي الأخرى) تنطلق من الإيمان بأن ثمة فارقا جوهريا كيميائياً بين عالم الإنسان المركب، المحفوف بالأسرار، وعالم الطبيعة (والأشياء والمادة)، وأن الحيز الإنساني مختلف عن الحيز الطبيعي المادي، مستقل عنه، وأن الإنسان يوجد في الطبيعة وعالم المادة المتغيرة، ولكنه ليس جزءاً عضويّاً منها؛ لأن فيه من الخصائص ما يجعله قادراً على تجاوزها وتجاوز قوانينها الحتمية، وصولاً إلى رحابة الإنسانية وتركيباتها (وهذا هو مصدر ثنائية الإنسان والطبيعة التي تسم كل الأنساق المعرفية الهيومانية الإنسانية Humanistic). وهي ثنائية تفاعلية، بمعنى أنه على الرغم من أن الإنسان منفصل عن الطبيعة إلا أنه يتفاعل معها ويستمد منها أشكالاً مختلفة من المعرفة ويقوم بإعمارها (فهو حسب التصور الإسلامي مستخلف فيها من الله سبحانه وتعالى). ويعبر هذا عن نفسه في رؤيتي النقدية، إذ أنني أركز على النقطة التي يتقاطع فيها العام مع الخاص، والمضمون مع الشكل، والفكر مع الأدب، أي النقطة التي يتفاعل فيها أطراف ثنائية الواقع المادي (الموضوعي) في مقابل الواقع الأدبي (الذاتي). والفكر الذي يرى أسبقية الطبيعة / المادة على الإنسان، وأن الإنسان جزء لا يتجزأ منها؛ هو فكر مادي يرد الإنسان إلى الطبيعة ويستوعبه فيها ويختزله إلى قوانينها، فيختفي الحيز الإنساني ويبتلعه الحيز المادي، وبدلاً من ثنائية الإنسانية والطبيعية تظهر الواحدة الطبيعية / المادية.

ومن الأفكار التحليلية الأساسية الأخرى في هذه الدراسة فكرة الثنائية وفكرة وحدة الوجود. والثنائية هي الإيمان بوجود أكثر من جوهر في العالم. والثنائية الأساسية (في النظم التوحيدية) هي ثنائية الخالق (المنزه عن الإنسان والطبيعة والتاريخ) والمخلوق. وهي ثنائية فضفاضة تكاملية؛ إذ أن الإله مفارق للعالم، إلا أنه لم يهجره ولم يتركه وشأنه. وينتج عن هذه الثنائية الأولية ظهور ثنائيات تكاملية عدة من أهمها ثنائية الإنسان والطبيعة، التي تفترض انفصال الإنسان عن الطبيعة وأسبقته عليها واستحالة رده إليها وتفسيره في إطارها، لأن الإله خلقه وكرمه واستخلفه في الأرض، ووضعها في مركزها.

أما وحدة الوجود - أو الحولية - فهي المذهب القائل بأن كل ما في الكون (الإله والإنسان، والطبيعة) مكون من جوهر واحد، مكتفٍ بذاته يحتوى على مركزه وركيزته الأساسية داخله. ومن ثم ينكر هذا المذهب وجود الحيز الإنساني المستقل، كما ينكر إمكانية التجاوز. وفي إطار وحدة الوجود يمكن رد كل الظواهر - مهما بلغ تنوعها وعدم تجانسها - إلى مبدأ واحد كامن في العالم، كما أن الجزء يذوب في الكل، ويتم تسوية الإنسان بالكائنات الطبيعية وتلغى كل

الثنائيات، وتسود وحدة الوجود التي تتسم بالواحدية الصارمة التي تنزع القداسة عن كل الأشياء، وتصبح كل الأمور نسبية.

والرؤية التي تنطلق منها هذه الدراسات تذهب إلى أن التصور الحلولى المادى الواحدى للإنسان يختزله إلى عنصر واحد أو اثنين، بينما ترى الرؤية الإنسانية الكائن البشرى باعتباره ظاهرة مركبة تحتوى على عناصر وأبعاد عدة متداخلة، لا يمكن رصدها فى كليتها، وإنما يمكن رصد أو استكشاف بعض أبعادها وحسب. وهذه التركيبية الإنسانية لا تختلف كثيراً عن تركيبية النص الأدبى. ولذا فالقراءة النقدية للنصوص فى هذه الدراسات تتبع منهجاً يحترم حدود النص الجمالية، ولا تهمل سياقه الاجتماعى والحضارى والشخصى.

ويضم الكتاب مجموعة من المقالات التى نشرت بالإنجليزية (« الليل والظلام هما الأفضل دائماً» - « أنساق أخلاقية» - « المأزق الترانسندنتالى» - « ثنائىة الإنسان والطبيعة» - « اللجوء إلى وولدن») والذى قام بترجمتها صديقى الدكتور شعبان مكابى، أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة حلوان (رحمه الله)، ماعدا الأولى والذى قام بترجمتها الدكتور محمد الصاوى أستاذ الترجمة بجامعة المنصورة. والأصل الإنجليزى لهذه الدراسات (والدراسة المعنونة « مواظ قصصية عن الضرورة والحريه») توجد على موقعى الإلكترونى www.elmessiri.com.

وقد قام صديقى الدكتور محمد هشام، المدرس بجامعة حلوان بقراءة هذا الكتاب قبل نشره، واقترح علىّ تعديلات كثيرة أخذت بمعظمها. كما قام الأستاذ أحمد عبد الرحيم (كلية دار العلوم) بتحرير الدراسات، وقامت الأستاذة أمانى عبد الخالق بإعداد المخطوطة للنشر وقد قام مساعدى الأستاذة دينا رمضان (المعيدة بجامعة عين شمس) والأستاذ محمد الأشول بالتعاون معى عبر كل مراحل تأليف الكتاب وإعداده للنشر. فلهم جميعاً منى الشكر وعند الله الجزاء.

دمنهور - القاهرة

يناير ٢٠٠٧